معركة الحب بين بنى آدم

وهبط آدم إلى الأرض ، إلى الدنيا ، ليعيش ويتناسل ، ومنه ومن ذريته يَعْمُر الكون ، ويتسع العمران .

وكيف يتكاثر الجنس من زوجين اثنين ؟

وأراد الله أن تحمل حواء وتلد ، وأن تلد توائم ، فى كل بطن ذكر وأنثى ، ولد وبنت ، ثم بنت وولد ، ويكبر هؤلاء وهؤلاء ، ويبلغ الصبيان مبلغ الرجال ، وتكتمل أنوثة البنات .

ويرى آدم ، وهو سليم الفطرة ، أن يزوج فتى البطن الأولى من فتاة البطن الثانية . وأن يزوج فتاة البطن الأولى من فتى البطن الثانية .

ودلته فطرته ، إلى أن الأخ لا يستولد أخته التى كانت معه فى بطن واحد وخَلاَص واحد . وإن استولدها خرج ولدُها ضعيفًا سقيمًا ، فلا يتكاثر النسل ، ولا يقوى الجنس ، لفتور العاطفة ، وبرُود الحاسَّة ، وتغلُّب الحنان على الشهوة ، بين الشقيق والشقيقة ، والتوأم والتوأمة .

حتى نحن فى هذه الأيام ، لانرضى كثيرًا عن زواج الأقارب . وبنات الأعمام والأخوال ، ونقول فى الأمثال :

إن من يستحى من بنت عمه ، لا يأتى منها بغلام .

وارتضى آدم ، وزوجته حواء ، وأبناؤه الصبيانُ والصبيات ، هذا النظام الذى رسمه ، والدستور الذى قننه .

* * *

ولكن العاطفة حين تغلب على العقل ، والشرَّ حين يتعدَّى الخير ، والشيطانَ حين يُحرِّض على الخروج على القانون ، والعقوق حين يسبق الطاعة ، والجمال حين يستبدُّ بالقبح والدمامة والنفسَ الأمارة بالسوء .

كل هذا جعل معركة الحب تدور بين قابيل وهابيل من أولاد آدم . قابيل يتعلق بتوأمته الجميلة ، ويضنُّ بها على أخيه هابيل أن يتزوجها ، ويرفض أن يتزوج توأمة هابيل الدَّميمة الصورة ، القبيحة التكوين .

فهو يحب هذه ، ويكره تلك ، ويصر على أن يخرج على الدستور ، وأن يحطم القانون ، وأن يذبحه على مذبح الحب ، مهما اضطرب النظام واختل العُرف .

ويرى أن جمود القانون ، لا يصد تيار العاطفة الجارف ، ويجيز لنفسه أنْ يشبع هواها ، ويصم أذنيه فلا يستمع لصوت العدل ، وأن يضحى بكل تقليد رسمه أبوه .

* * *

وكانت معركة الحب ، وثورة الأثرة ، ونذير الحرب . وكانت حيرة الأب الحنون ، بين ولديه قابيل وهابيل ، بين التمرد والطاعة ، وبين الحق والاغتصاب !

واتجه آدم إلى ربه فى حيرته ، يسأله أن يُلهمه الصواب والهداية حتى يعيد الحق إلى نصابه .

فألهمه الله أن يُوجّه ولديه ، إلى الاحتكام لأمر الله ، وأن يتقربا إلى الله . وأن يقدم قابيل قربانًا من زرعه ، وأن يقدم هابيل قربانًا من غنمه .

* * *

وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . فقدم قابيل النمرود قربانه ، ليحصل على معشوقته ، وقدم هابيل قربانه ليتحرى إرادة الله ورضاه فى قربانه . فتقبل الله قربان هابيل ، ولم يتقبل قربان قابيل .

وكانت الجميلة المعشوقة من حظ هابيل . وفاتت الفرصة على قابيل ، فازداد غيظه ، واشتد حَنَقُه وملأت الكراهية قلبه ، وجفَّتْ شجرة الأخوة فى صدره ، وطاش عقله ، وتملَّك ابليس زِمامه ، وحرَّضه على أخيه ، وهمَّ به أن يقتله !

وقال له أخوه الطيب هابيل ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(المائدة الآيتان ٢٨/٢٩)

هابيل فى حلمه ، يصبر على قابيل فى جنونه وثورته ، وهابيل قوى متين ، يقدر أن يقتله ، ويستطيع أن يبطش به ، ولكنه يخاف الله فى أخيه ، ويبقى عليه ، ويتوعَّدُه إن أقدم على قتله ، أن يتحمل ذنوبًا لاطاقة له على حَملها ، ويتهدَّدُه ويخوِّفه أنْ يتردَّى ، فى هاوية غضب أبيه ، وغضب الأب من غضب الربّ يقذف بالعُصاة فى النار وذلك

جزاءُ من يطغى ويغتصب حق الآخرين ، جزاءُ مَن يجترئ على نفسٍ فيقتلها ، وعلى روح فيزهقها ، وعلى نعمةِ الحياة فيسرلبها .

هدوء ، تُوحى به خشيةُ لله ، وحنانٌ زرعته الأُخُوَّة ، وحرصٌ على سمعة الأسرة وخضوعٌ لما رسم الدستور والقانون . وتقديرٌ للمسئولية أمام الله وحسابه ، وخوفٌ من عقابه !

وثورةٌ وعقوق ، وأثرةٌ وحبٌّ للنفس ، وانسياقٌ مع الشيطان وانزلاقٌ فى الطغيان ، وبُعْدٌ عن ساحة الرحمن ، وعنادٌ وعصيان .

قوتان تصْطَرعان ، خيرٌ وشر ، وإيمانٌ وكفر ، وجنةٌ ونار ، وميدانٌ للحب الملتهب بعاطفته وللعقل المتأنى المتزن .

وإبليسُ يلعب بالنار ، ويُغرِى بالجريمة ، ويصيحُ بالفتنة ، وكان ما كان وقتل الأخ أخاه ، وفَزِعَت الأرض إلى الله ، من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .

وحَزن الأب لنشوب الحرب بين بنيه ، وتمزَّقَ صدره من الأسى ، أظلمت الدنيا فى عينيه .

ورقص إبليس ، وسطر فى سجلِّ الكون أول جريمةِ قتل ، وإهراقِ دم ، وإزهاقِ روح ، لم تكن بين عدوين ، بل كانت بين أخوين .

* * *

وأفاق قابيل على صَرخة الإنسانية ، تَصُم أذنيه ، وفتَّح عينيه ، فرأى دماء الأُخُوَّةِ الحارَّ ، يسيل تحت قدميه .

أفاق القاتل ، على أنات القتيل !

أفاق ، فرأى أخاه طريحًا جريحًا مُضرَّجًا ، وتمثلتْ له الجريمةُ الأولى ، فساختْ به قدماه ، وخانته عيناه ، فَطَفرتْ الدموع ، وتتابعتْ الأنفاس بالحسرات !

وماذا يفعل بالراقِد المطروح ، والجسم المجروح ، والعُنق المذبوح ، والريحُ يفُوح ، ومن ياترى بالسر يبوحُ !

وراحت السكْرة ، وجاءت الفِكرة ، وتوارَتْ الأُثْرَة ، واشتملته الْحيرة والحسْرة !

أيتركهُ ؟ وما تعوَّد أن يتركه !

أيرميه فى البحر ؟ ولا بحر !

أيُطعمه للسباع ، والنسور الجياع ؟

عذابُ النفس ، وقَلَقُ الضمير وفحيحُ النَّدم ، وخوْفُ العار ، ومُلاحَقةُ الفضيحة ؛ قتلَ أخٌ أخاه ؛ وقتل قابيل هابيل من أجلِ امرأة !

* * *

واحتمل جثتَهُ على ظهره ، ودار بها حيران ؛ ولا يدرى ما المصير ؟ وقضى نهارَه مهمومًا ، وليلَه حزينًا ، حتى نتنت الجيفة ، وخبثت الرائحة ، ونفدَ الصبر ، وضاق الصدر ، وعز المخرَج ، ولم يبق إلا عفو الله !!

* * *

والله عفوٌّ غفور .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾
(فاطر الآية ٤٥)

* * *

وكان لابد لهذا الآثم المسكين ، أن تنحلَّ أزمته ، وتنفرج كربته ، وأن يعادَ أمام عينيه تمثيل مأساته ، على مسرح صغير ، يقام أمامه .

* * *

فبعث الله غرابين أسودين ، يتنافسان على فتاتٍ من خشاشِ الأرض ، فيتشاجران ، فيصْطرعان ، فيقتل أحدهما أخاه ، حتى إذا مات ، هدأت ثورة الغراب القاتل ، وأحسّ بجريمته ، فجثا على جثة أخيه يبكيه ثم حفر فى الأرض ، فدفنه ، وواراه ، وأهال عليه التراب . ثم بلل تراب القبر بدموعه ، ثم ركع يودعه ، ثم طار وغاب ، كل هذا وقابيل ، يشهد هذه المسرحية ، وهو واجم ساهم ، كأنما كانت سياطًا تلهب روحه وجسده ، وهو لا يقوى على تأوُّه أو صراخ .

ثم انفجر يبكى بعينيه ، ويلطم خديه ، ويجثو على ركبتيه ،

ويقول :

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ (المائدة الآية ٣١)

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة الآية ٣٢)